مكدونلد لا لهم ولكن ذلك يعود بالفخر علينا . وأكثر هذا اللواء من السودانيين والفرق بينهم وبين المصريين الذين حاربوا معهم كتفاً بكتف انما هو في ان السودانيين حاربوا عن طيب نفس واما المصريون فربما كانوا يفضلون ان لا يحاربوا ولكن اذا تذكرنا ان جنود هكس مضوا الى القتال منذ ست عشرة سنة وهم يكون وان باكر باشا وهو من افضل قوادنا كلهم لم يستطع ان يجعل ثلاثة آلاف منهم يقفون امام ١٢٠٠ من العرب فهمنا مقاد ما فعلته جنود مكدونلد فهمنا ان امة بامرها هبّت من سباتها وطرحت ما البستها اياهُ قرون الاستعباد الماضية ولذلك تفتخر بما فعلهُ لواء مكدونلد لان فخرهُ عائد اليها

ثم استطرد الى ذكر الاسلحة التي استعملت في واقعة ام درمان وقال انها قد غيّرت اساليب الحرب عما كانت عليهِ منذ عشرين او ثلاثين عاماً

الجرائم والاوهام

لا مشاحة في ان العمران حديث في اوربا وان اهاليها لم يكسروا قيود التقليد ولم يخرجوا من ربقة الاوهام الاَّ منذ عهد حديث . وهم على ما بلغوهُ الآن من الارتقاء علماً وصناعة وتجارة لا يزال بعضهم غائصاً في بحار الجهل مكتنفاً بالاوهام والخرافات التي يضحك منها عامتنا فضلاً عن خاصتنا وقد رأينا لذلك امثلة كثيرة في مقالة مسهبة للاستاذ افانس فقلنا بعضها عنهُ

من ذلك قتل الاطفال اعتقاداً بانهم من اولاد الجان وهو عادة شائعة عند العامة في اوربا كلها فاذا ولد لبعضهم ولد سقيم قالوا ان جنية اخذت الطفل السليم ووضعت بدلاً منهُ طفلها السقيم فيضربون الطفل بقضبان المرعن الى ان تشفق امهُ عليهِ وتسترجعهُ والاَّ اكثروا ضربهُ او رموهُ على مزبلة او سلقوهُ بالماء الغالي حتى يموت . وقد حدث شيء من ذلك في مدينة نيوبورك نفسها سنة ١٨٧٧ فان رجلاً ارلندياً وزوجتهُ قتلا طفلهما حاسبين انهُ طفل جنية بدلت بهِ طفلهما الحقيقي . وامثلة ذلك كثيرة في ارلندا حتى ان الابوين قد يقتلان ولداً بالغاً من اولادهما اعتقاداً انهُ من اولاد الجان . ومنذ مدة وجيزة مرض ولد ارلندي عمرهُ اربع سنوات وسقم جسمهُ ولم ينجع فيهِ علاج فقال ابواهُ انهُ ليس ابنهما بل ابن جنية بدلت ابنهما بهِ فعليا ماءً ووضعاهُ فيهِ فجعل يبكي ويستغيث ولا مغيث الى ان قضى نحبهُ ونجاهُ الموت من عذاب النار

وذكر الكاتب وقتئذٍ انهُ رأى رجلاً يعذب ابنهُ في قرية غربي بروسيا ولما سألهُ

عن سبب ذلك على ان المولد كبير الرأس وابوهُ صغيرا لرأس فاعتقدا انهُ ليس ابنهما بل ابن جنيَّة

وسنة ١٨٨٣ ولدت امرأة في شمالي سيلسيا ببلاد بروسيا اطفلاً ذميماً فقالت هي وزوجها انهُ ليس طفلهما بل طفل جنيَّة بدلت به طفلها فاضرما ناراً واسكاهُ فرقبا لكي تشتق امهُ عليهِ وتسترجعهُ وابقياهُ فوق النار الى ان احترق جلدهُ ومات . والمأثور من سكان شرقي بروسيا يضعون كتاباً دينيًّا تحت رأس الطفل المولود حديثاً لكي لا يأتي الشيطان ويبدلهُ بطفل من اطفالهِ

ومن اغرب الحوادث التي حدثت من هذا القبيل ان رجلاً من اهالي بوسن في بروسيا اسمهُ باكر عاش عيشة الجد والاقتصاد حتى اشترى بيتاً وتزوج ورزق خمسة اولاد وعاش مع زوجتهِ واولادهِ بالرفاء . وكان لزوجتهِ اخت اكبر منها سناً كانت تقضي نصف نهارها في الكنيسة والنصف الآخر في الم على جاراتها فزارتهُ يوماً وادَّعت انها تعرف ما اذا كان الانسان اتصال بالشيطان فصار نساء البلد يحببنها ساحرة وصارت اختها تفعل كل ما تأمرها بهِ وتصدق كل ما تقولهُ لها . وذات يوم نهضت من سريرها في نصف الليل ونادت اختها بصوت عالٍ قائلة رأيت الشيطان اخذ ابنك الرضيع ووضع ابنهُ بدلاً منهُ فاضرمي حالاً لكي يرد لك ابنك ثم هجمت على الطفل ورفعتهُ من سريرهِ وحاولت رميهُ من الكوة وهي تنادي الشيطان وتقول خذ ابنك ثم اعطتهُ لامهِ وقالت لها ارميهِ على الارض واضربيهِ حتى يموت والاَّ لم يمكنك ان تستردي ابنكِ . فطرحتهُ امهُ على الارض وجعلت تضربهُ بنطاقة كبيرة وسمعها زوجها فنهض واسرع اليها وحاول اولاً ان يحمي ابنهُ فاقنعتهُ انهُ ابن الشيطان وانهُ لا بدَّ من ضربهِ حتى يشتق الشيطان عليهِ ويأخذهُ ويرد لها ابنها فجعلا يضربانهِ حتى مات . وسمع ابن خالتهِ صوت الضرب وعمرهُ خمس سنوات فاتى وجلس بجانبهِ يبكي عليهِ فقالت امهُ اضربوهُ اضربوهُ فانهُ ليس ابني بل ابن الشيطان فراغوا عليهِ بالضرب الى ان مات . ثم قالت امهُ ان الشيطان دخل مدخنة الموقد واخذت تحاول هدمها فمنعوها من ذلك . وفي الصباح انتبه الرجل وزوجتهُ لفظاعة ما عملا فجلسا بجانب جثتي الولدين يبكيان ويندبان . وقيدا الى المحاكمة ورُفع امرهما الى لجنة من علماء العقل في برلين فحكمت بسلامة عقل الرجل وزوجتهِ وقالت انهما مسؤولان عما فعلا واما اخت زوجتهِ فحكمت اللجنة انها مختلة العقل وغير مسؤولة عما فعلت لكن مجلس المحلَّفين حكم انها مسؤولة ايضاً عما فعلت فحكمت عليها المحكمة بالحبس ثلاث سنوات مع الاشغال الشاقة وزاد المحلفون بان قالوا انها خادعة لا مخدوعة وانها فعلت ما فعلت قصد الشهرة وقتلت ابنها لكي تتخلَّص منهُ

وغنيٌّ عن البيان انهُ يصعب احياناً التمييز بين الخداع الحقيقي في مثل هذه الاحوال وبين الانخداع كأن الانسان يكون في اول الامر خادعاً ثم يصير مخدوعاً والبحث في ذلك من اهم المباحث لعلماء الاخلاق وعلماء القانون

ولا يزال بعض الاوربيين يضحي الضحايا للشيطان دفعاً للجوع والوباء ففي سنة ١٨٨٩ حكمت محكمة اركنجلس في شمالي روسيا على رجل بالسجن خمس عشرة سنة والاشغال الشاقة لانهُ قتل فتاة اسمها سافاني . وقد قال في دفاعهِ عن نفسهِ وقت المحاكمة ان البرد اشتدَّ في الشتاء الماضي وكثر وقوع الثلج وقلَّ الطعام فاصيب اولادهُ كلهم بداء الاسكربوط وماتوا فعمل تمثالاً للشيطان من الخشب ودهن شفتيهِ بالشحم ونصبهُ على رأس أكمة وحاول ان يصيد واحداً من رفاقهِ بالحيل والاشوطة فاتت زوجتهُ وانقذتهُ منهُ بعد ان التفَّ الحبل على عنقهِ فتركهُ وصاد هذه الفتاة وضحَّاها لتقال الشيطان لكي يدفع الوباء عن بيتهِ

واهالي نوفغورود في روسيا يدفنون حيواناً حيًّا دفعاً للكوليرا من بلادهم . واشتدَّت وطأة الكوليرا هناك يوماً فاجتمع اهل قرية واتوا قسيس كنيستهم وقالوا لهُ انهم عازمون ان يدفنوهُ حيًّا لكي ينجوا منها . فقال لهم حسناً تفعلون ولكن لا بدَّ من ان استعدَّ لذلك قبلاً والاَّ لم يكن من دفني فائدة لكم . واخذ منهم مهلة بضعة ايام اخبر الحكومة في غضونها بما نووهُ لهُ فانقذتهُ منهم

واحتال رجال قرية اخرى على امرأة عجوز فأتوا بها الى المقبرة ودفنوها حية بين قبور الذين ماتوا بالكوليرا لكي تنجو قريتهم منها ولما قيدوا الى المحاكمة احتجوا بانهم فعلوا ما فعلوا عملاً بمشورة احد ضباط الجيش فحكم عليهِ بالجلد وسجن ١٢ سنة في سيبيريا

ومن قبيل ذلك نبش قبر الميت وقطع رأسهِ دفعاً لمرض او وباء اعتقاداً ان من ينتحر او يموت من غير حلَّة إما لانهُ مات كافراً او لانهُ مات فجأة يخرج من قبرهِ ليلاً ويمتصُّ دماء الناس او يعديهم بالامراض والاوبئة . ويدفع اهالي روسيا ذلك عنهم بدفن هذا الميت على وجههِ وغرز وتد في ظهرهِ واهالي بولندا وشرقي بروسيا يلفهِ بشبكة وتغطيتهِ بالخشخاش لانهُ من المحرَّمات . وقد يلجأون الى وسائط اخرى اشهرها نبش الميت بعد دفنهِ وقطع رأسهِ . من ذلك ان امرأة انتحرت سنة ١٨٩٢ في ولاية كوفنو من ولايات روسيا فلم يقبل قسيس الكنيسة ان يدفنها في المقبرة وخاف اولادها ان تخرج روحها من القبر وتعذبهم فقطعوا رأسها ودفنوهُ عند قدميها . وسنة ١٨٨٧ انتحر رجل في جنوبي روسيا وحدث قيظ بعد انتحارهِ فقام الفلاَّحون ومضوا الى قبرهِ وصبُّوا عليهِ ماء وهم يقولون انا " نصبُّ الماء فامطرينا ايتها السماء

وشيخنا من هذا البلاء " . ولما لم يجب طلبهم نبشوا الميت وطرحوهُ في جب خارج قريتهم

ونبش القبور شائع في جنوبي بروسيا كما يظهر من احصاء الجرائم فيها . في سنة ١٨٩٦ توفي رجل في قرية ثم مرض ابنهُ بعد وفاتهِ مرضاً لم ينجع فيهِ علاج فسبب القرية فجاءتهُ امرأة اقنعتهُ ان اباهُ من " فئة التسعة " اي انهُ لا بدَّ من ان يميت تسعة بعدهُ من اولادهِ واقاربهِ الادنين ولا علاج لذلك الاَّ بنبشهِ من قبرهِ وقطع رأسهِ فنبشهُ وقطع رأسهُ . وقيد الى المحاكمة فاحتجَّ انهُ فعل ذلك دفاعاً عن نفسهِ فصدَّق القضاة قولهُ وبرأوهُ لانهُ فعل ما فعل معتقداً انهُ بقطع رأس ابيهِ قد نجى نفسهُ واخوتهُ واقاربهُ من الموت

الاَّ ان نبش القبور لا يقتصر على ذلك بل قد ينبشها البعض ليستخرجوا منها ادوية وطلاسم تمكنهم من الاعمال السحرية ومن ارتكاب الجرائم من غير ان يكشف امرهم . من ذلك ان رجلاً من اهالي بولندا توفيت زوجتهُ سنة ١٨٦٥ فنُبش قبرها ليلاً وكُشف الرجل الذي فعل ذلك وهو راعي غنم فاعترف انهُ نبشهُ لكي يأخذ سناً من اسنانها فيدقها ويضعها في السعوط ويعطيهُ لصهرهِ فسمهُ بهِ . ولما نبشها وجدها امرأة فلم يقلع منها لان سن المرأة لا يميت في زعمهِ فشق صدرها واستخرج كبدها لكي يطعمها لبقر في حقل ترعى فيهِ الغنم حتى اذا أُبدل براعٍ آخر تأكل الغنم من ذلك الحقل فتموت كلها . فحكم عليهِ بالاشغال الشاقة في سيبيريا

ويعتقد اللصوص في بروسيا وسيليسيا وبوهيميا وبولندا انهُ اذا سُحقت شمعة من شحم الانسان واضاءها السارق في بيت نام كل الذين فيهِ ولم يعد احد منهم يستيقظ فيسرق منهُ ما شاء ويخرج سالماً من غير ان يدري بهِ احد . واذا اراد ان يكون على ثقة تامة من ان اهل البيت لا يدرون بهِ وضع يد انسان ميت على الكوة التي يدخل منها ولذلك اذا ارادوا المبالغة في استغراق النائم في نومهِ قالوا انهُ نام كأن يد انسان قربهُ . ولهذا السبب تكثر جنايات القتل التي يراد بها قطع يدي المقتول واستخراج شحمهِ . ويجهل القضاة سبب ذلك فيحسبون ان القاتل مغرًى بها لخلل في عقلهِ والحقيقة انهُ يرتكب هذه الجرائم الفظيعة استعداداً لارتكاب جرائم أخرى

ومن امثلة ذلك ان لصاً دخل بيتاً في بروسيا سنة ١٨٦٥ وسرق ما فيهِ وقتل الخادمة ولم يكن غيرها في البيت ثم قطع قطعة كبيرة من لحمها لكي يصنع منها شمعة يسرق على نورها بيتاً آخر . وحينما كان يسرق البيت الآخر قُبض عليهِ وهو يحكم فاعترف بجنايتهِ واعترف ايضاً انهُ اكل جانباً من ذلك اللحم تسكيتاً لتوبيخ ضميرهِ . فحكم عليهِ بالقتل

وفي اواخر سنة ١٨٩٦ حوكم اثنان في جنوبي روسيا لانهما اضطهدا ولداً عمره ١٢ سنة فذبحاه واستخرجا شحمه ليصنعا شمعاً منه

ويعتقد بعض الجناة في اوربا انه اذا اكل الواحد منهم قلب تسعة اجنة قبل ان تولد صار يمكنه ان يختفي عن الانظار حتى لا يراه احد وان يطير في الهواء ايضاً فيصير يرتكب ما شاء من الجرائم ولا يُقبَض عليه ولا يدري به احد واذا قُبض عليه وسجن امكنه ان يفك القيود بسهولة ويخرج من جدران السجن . ولكن يشترط ان تكون الاجنة كلها ذكوراً . وهذه الخرافة القبيحة قديمة في اوربا فانه يروى عن المرشال جيل ده لافال الفرنساوي انه قتل مئة وخمسين من الحبالى لكي يستخرج اجنتهن وظن اولاً انه فعل ذلك لانه كان يعبد الشيطان واقيمت لجنة لتنظر في امره فحكمت انه مجرم وحكمت عليه بالشنق والحرق وذلك في العشرين من اكتوبر سنة ١٤٤٠ ولم تزل اوراق محاكمته محفوظة في سجلات مدينة ننت . ولم يعلم القضاة سبب ارتكابه هذه الجرائم ولكن يظهر من تاريخه انه كان قاصداً ان يكتسب قوة حتى قهر اعدائه من غير ان يُقهَر . وهو من الذين حاربوا مع جان دارك سنة ١٤٢٩ في واقعة اورليان

وكان في شرقي بروسيا عصبة من اللصوص عاثت في الارض فساداً وبقرت بطون اربع عشرة امرأة ثم قبض عليها فاعترفت انها بقرت بطونهن لكي تستخرج اجنتهن ولكنها وجدت الاجنة ذكوراً فلم تنفعها ولذلك قُبض عليها . واغرب من ذلك بقاء هذه الخرافة القبيحة الى الآن في اعظم مراكز العمران فقد حدثت حادثة مثل الحادثة المتقدمة سنة ١٨٧٩ بقرب همبرغ وهي ان لصاً اسمه اندرسن بقر بطن امرأة لكي يأكل قلب جنينها . وحدثت حادثة اخرى مثلها بقرب فينا سنة ١٨٨٩

ومن الخرافات الشائعة في اوربا ايضاً ان من حلف يميناً كاذبة لم يقع به ضرر اذا كان معه وهو يحلف اليمين شظية من عظام طفل او عين هدهد او اذا وضع في فمه سبع حصى او اذا ضغط بيده اليسرى على خاصرته او اذا تنقل على الارض حالاً بعد ان حلف اليمين

هذا وانا نمسك اليراع عند هذا الحد ولا نتخذ ما تقدم دليلاً على انحطاط الشعوب الاوربية ونكتفي بحسبه دليلاً على رسوخ العوائد القديمة في طبع الانسان . وكفى المرء نبلاً ان تعد عيوبها